

اللغة الولوية بالسينغال ... أصبحت بفضل القرآن أداة تثقيف وتربية

بقلم فضيلة شيخ الاسلام الحاج البرهيم نياس
سنغال (مدينة كاولاخ)

اللغة العربية لا وهل الوعي الاسلامي يقوى ويضعف
تبعا لما يعتري لغة الضاد من قوة او ضعف فى الاقطار
الاسلامية ... ؟

وانا ارى بكل صراحة : ان اللغة العربية ، على
عظمتها ورغم خصائصها التى لا تنكر ... ما كانت
لتخرج من جزيرتها لولا هذا الحدث الضخم الذى
تم - بفضل الله - منذ اربعة عشر قرنا .. وهو نزول
القرآن الكريم بلسان عربي مبين .. ذلك الكتاب
العزیز الذى سارت العربية فى موكبه حيثما اتجه
فاصبحت بسببه لغة عالمية يعنى بها ويقدها جميع
المسلمين فى المشرق والمغرب . واذكر اننى قد قمت
سنة 1963 برحلة من سنغال بغرب افريقيا الى
الصين بأقصى الشرق فما خللت ببلد الا ووجدت
فيه من يكلمنى بالعربية فصيحة بليغة ويحيينى بتحية
الاسلام !

لا جرم انه لولا هذا القرآن الكريم لبقيت
العربية لغة اقليمية محصورة . واذا كتب لادبها ان
ينمو ويتطور فسوف يكون - على احسن تقدير -
على مستوى ادب جارتها الفارسية .. فاللغة الفارسية
لغة ادب وفن وفلسفة منذ قديم - ولكنها ظلت لغة
اقليمية قل من يعرفها من غير ابنائها . واما لغة

تحية لمكتب تنسيق التعريب فى العالم العربى ،
وواها له ! فهو جهاز نشيط دائب الحركة ، ومن اهم
فروع الجامعة العربية . واننى لامل ان يتوفر لهذا
المكتب كل الوسائل اللازمة لاداء رسالته الكبيرة
الضرورية ، حتى نرى شجرة التعريب فى مستقبل
قريب ، وهى ثابتة الاصل ، باسقة الفروع ، وارفة
الظل ، فيكتمل للامة العربية ملامحها ، وتتسق
قسماتها ، وتستعيد الضاد هيبتها ، وتصبح الفصحى
هى الرباط الوثيق لسائر اقطار هذه الامة الكبيرة
المنتشرة فيما بين المحيط والخليج ..

واننى فى الواقع لكبير الاهتمام بنشاط مكتب
التنسيق .. هذا ، خصوصا منذ عامين حيث
اتيحت لى فى صيف عام 1966 فرصة الاجتماع
بمديره المسؤول الاستاذ عبد العزيز بن عبد الله الذى
زودنى - جازاه الله خيرا - بمجموعة طيبة من
مطبوعات المكتب ، اطلعت فيها على ابحاث مفيدة
ممتعة ومطمئنة . ولذلك كله رجيت - مسرورا -
برسالة المكتب .. التى تضمنت نص الاستفتاء
الخاص بعلاقة الاسلام باللغة العربية ، والذى يدعو
اهل العناية بهذا الموضوع الى الادلاء بأرائهم فيما اذا
كان هناك تلازم او ترابط بين انتشار الاسلام وانتشار

الضاد فقد انطلقت من اسرار الاقليمية كما قلت منذ ان جعلها الله - جلت قدرته - لغة التنزيل ، ولسان الوحي ، واساس الاسلام ، وترجمان عباداته ، ورباط الروح .. فهي - والحالة هذه - لغة تستمد شرفها ، وتستقى روافدها اساسا من الاسلام . ولا تضمن لنفسها بقاء ولا خلودا الا بهذا الاسلام . وهذه حقيقة بديهية لا تحتاج الى برهان اللهم الا اذا احتاج النهار الى دليل .

هذا - وان اختيار العربية لغة لكتاب الله انما هو حلقة في سلسلة اختيارات بديعة هي بعض فضل الله علينا وله المنة ! فقد اختار لنا الاسلام ورضيه لنا ديننا ، واختار لهذا الدين كل ما له علاقة بانتشاره في العالمين ، ولا غرو فهو تعالى « اعلم حيث يجعل رسالته » واعلم بما يكفل لهذه الرسالة النجاح والتوفيق . فقد اختار من البشر محمدا بن عبد الله صلى الله عليه وسلم حاملا لهذه الرسالة ، وهو اكمل الناس خلقا وخلقاً ، واشرفهم حسبا ونسبا . واختار لها من البقاع الحرمين الشريفين : منطقة حماها بقدرته من الفساد الذي ظهر في البر والبحر يومئذ . وجعل لاهلها استمدادا لحمل رسالة الاسلام . وانسزل قرآنه الكريم بلسان عربي مبين .. واختار لها عصر النبي الذي عاش فيه خير القرون ، وهم صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا يزال يختار لهذا الدين دعاء هداة في كل زمان ومكان . وهذه عقيدة كل مسلم موفق ، وكم جرت بها اقلام اهل العلم عبر العصور للبرهنة على ان ارتباط اللغة العربية بالاسلام مسألة بديهية ، وحقيقة سافرة يجب ان لا تعزب عن الاذهان : فقد ذكر العلامة اللغوي ابو منصور الثعالبي في مقدمة كتابه الجليل فقه اللغة .. « بان من احب الله احب رسوله المصطفى صلى الله عليه وسلم ، ومن احب النبي العربي احب العرب ، ومن احب العرب احب اللغة العربية التي بها نزل افضل الكتب ، على افضل العجم والعرب ، ومن احب العربية عني بها ، وثابر عليها وصرف همته اليها » .. « والاقبال عليها من الديانة . اذ هي اداة العلم ، ومفتاح التفقه في الدين ، وسبب اصلاح المعاش والمعاد . ولو لم يكن في الاحاطة بخصائصها ، والوقوف على مجاريها ومصارفها ، والتبحر في جلالها ودقائقها الا قوة التيقن في معرفة اعجاز القرآن وزيادة البصيرة في اثبات النبوة الذي هو عمدة الايمان لكفى بهما فضلا يحسن اثره ، ويطيب في الدارين ثمره » .

والوعي الديني ولا شك يقوى ويضعف تبعا لامتداد لغة القرآن او انكماشها ، وحسب قوتها او ضعفها في البلاد الاسلامية مبدئيا . اذ من المستحيل بداهة الاستغناء بترجمة معاني القرآن وتعاليمه عن تناولها مباشرة باللغة العربية .. بل ان وظيفة الترجمة في حد ذاتها تفرض وجود مترجمين فقهاء للغة التنزيل .. ذلك « لان الاسلوب العربي بخصائصه الثابتة جزء لا يتفصم عن جوهر القرآن ، ولا يمكن التجاوز عنه بنة » كما يقول الشيخ محمد الفزالي .. فلا بد اذا لنشر الوعي الاسلامي الحقيقي من نشر اللغة العربية حتى يتحمل الرسالة على الاقل دعاء مستعربون يجيدون العربية ويتعلمون في آدابها ، ويتعمقون في اسرار البلاغة وفنون الكتابة . واعتقد ان بوسع كل مسلم ان يلج العروبة من هذا الباب الواسع الذي فتحه الرسول عليه السلام على مصراعيه : فقد روى الحافظ بن عساكر قال : « جاء قيس بن مطاطية الى حلقة فيها سلمان الفارسي ، وصهيب الرومي ، وبلال الحبشي ، فقال : هؤلاء الاوس والخزرج قد قاموا بنصرة هذا الرجل ، (يعني النبي صلى الله عليه وسلم) فما بال هذا وهذا (مشيرا الى غير العرب من الجالسين) فقام اليه معاذ بن جبل رضى الله عنه فاخذ بتلايبه ثم اتى النبي صلى الله عليه وسلم فاخبره بمقاله .. فقام النبي صلى الله عليه وسلم مغضبا يجر رداءه حتى اتى المسجد ، ثم نودي : الصلاة جامعة فاجتمع الناس فخطبهم قائلا « يا ايها الناس ان الرب واحد ، وان الدين واحد ، وليست العربية بأحدكم من اب ولا ام ، وانما هي اللسان فمن تكلم بالعربية فهو عربي » . فالرسول عليه الصلاة والسلام انما يرشد بهذه الكلمة الى حقيقة ارتباط الوعي الاسلامي بفقه اللغة العربية ، ويشير الى حقيقة اخرى وهي ان العربية - وهي لغة القرآن - يجب ان تتحرر من الاقليمية والعنصرية الضيقة ، لتصبح اداة تفاهم بين جميع المسلمين على اختلاف اجناسهم واللوانهم ... واذا راجعنا التراث الاسلامي في سائر عصوره رأينا ان المسلمين قد لبوا هذا النداء المحمدي .. فنبغ كثير من غير العرب وبرزوا في شتى فنون العلم والمعرفة . ومن منا - انصار لغة القرآن - لا يعرف ولا يعجب بأمثال الشيرازي ، والسندي ، والحلي ، والزنجاني ، والجبرتي والافغانى والاشمونى ، والقلقشندى ، والصقلى ، والقيروانى والمراكشى والصنهاجى ، والقرطبي ، والفيروزابادى ، والبخارى وغيرهم من سلفنا الصالح الذين تدل نسبة كل منهم

عظمتها فيها ، ويستلحقهم من ناحيتها فيحكم عليهم احكاما ثلاثة فى عمل واحد : اما الاول فحبس لغتهم فى لغته سجنًا مؤبداً واما الثانى فالحكم على ماضيهم بالقتل محوًا ونسيانًا ، واما الثالث فتقييد مستقبلهم فى الاغلال التى يصنعها ، فأمرهم من بعدها لامره تسبع »

وبالنسبة لتأثير لغات المسلمين فى العربية . وتأثيرها بها فان لغاتنا معشر المسلمين فى سنغال مثلاً لم تؤثر فى نطقنا العربى وفى تعابيرنا العربية شيئاً ابداً اللهم الا آثار عجمة تظهر عند البعض نتيجة لعدم اتقانهم اخراج الحروف لاسباب تاريخية وسياسية لن اتعرض لها فى هذا المقال .. ولكن هذه اللغات تأثرت الى حد بعيد بلغة القرآن ، فلفتنا الولوفية مثلاً قد اصبحت بفضل القرآن اداة تثقيف وتربية جيدة .. وقد تسربت فيها مفردات عربية (اسلامية) كثيرة . وكثير من شعرائنا بهذه اللغة قد تقيدوا بأوزان البحور العربية ، وراعوا فى اشعارهم الكثيرة المتعددة المواضيع : احكام العروض العربى .. اضيف الى ذلك كله عقليتنا التى اصطبغت بالصيغة القرآنية وتأثرت بها فى القرآن الكريم من اساليب التعبير ، ووجوه التصوير والتصرف فى افانين الكلام .. ثم يأتى الحرف العربى الذى اتخذه المسلم السنغالى مثل اخيه الافريقى منذ قرون لتدوين ما يريد بلغته الولوفية .. وقد ظهرت اخيراً بادرة طيبة تستحق التشجيع وهى ان بعض المثقفين المسلمين من شبابنا قد جنحوا الى وضع مؤلفات بلغة وولوف مستعملين الحروف العربية ... ولبعض هذه المؤلفات قيمة علمية وفكرية كما لو كتبت باحدى اللغات الحية تقريباً .. وتلك ولا شك خطوة أخرى نحو التقرب الى لغة القرآن ، ووسيلة ناجحة للاسراع بحملة محو الامية .

وقد اذهب الى ابعد من ذلك لاقول ان سنغال - كغيره من الاقطار الافريقية - لم يحطم قيود الامية الا بفضل القرآن العربى المبين ، وهى حقيقة تاريخية لا ريب فيها . فاللغة الفرنسية مثلاً - وهى اليوم اللغة الرسمية لجمهورية سنغال - يرجع تاريخ بداية نشرها عندنا الى مائة وخمسين عاماً تقريباً ، فقد كان السيد جاندار اول مدرس انتدبته الحكومة الفرنسية لافتتاح اول مدرسة فرنسية فى سين لويى بسنغال، وهى الاولى فى عموم غرب افريقيا ايضاً وذلك فى عام 1816 م. بينما يسجل مؤرخ هذه المدرسة الاستاذ جوزيف غوشى فى كتابه : ما يدل

على اصله غير العربى . مع ان الفصحى تهلل عند ذكرهم . ذلك لان العربية لم تعد لغة اقليمية محصورة وانما هى لغة عالمية بفضل القرآن الكريم الذى يومن به ويقدسه المسلم حيثما كان . وهذا من اهم اسباب القوة فى هذا الدين ، وقد اثر عن السلف كلم طيب يصور الحق كل الحق وهو قولهم الاسلام بالعرب يبقى ، وبغير العرب يقوى . ولا غرو فالعرب مادة الاسلام ، وعزهم عز الاسلام، وذلمهم ذله كما جاء فى الاثر . وقد فطن اعداء الاسلام واعداء الامة العربية لاهمية الربط بين العروبة والاسلام فراحوا يشوهون جمال اللغة العربية ، ويهولون من صعوبة قواعدها الى حد الدعوة الى الغاء الاعراب ، وتغيير حروف الكتابة العربية . وانا اتحدى هؤلاء المهولين بقوم من المسلمين غير العرب اعرفهم فى عدة اقطار: قد برعوا فى اللغة العربية وآدابها براعة تامة بحيث انهم يستمعون بالدهشة والاستغراب الى كل هذا الضجيج الذى يثار حول اللغة العربية المظلومة .. ولكن ذلك كله متوقع ممن يريدون استضعاف الامة العربية ، وعزلها عن الامة الاسلامية .. وانما الداهية الدهيئة هى ما يلاحظ بكل اسف من وجود بعض من مثقفى العرب ، يساندون حملة التشهير بلغة التنزيل من حيث يشعرون أو من حيث لا يشعرون . هؤلاء المثقفون شرذمة قليلون فتنتهم الحضارة الغربية ، فأورثتهم امراضاً واغراضاً نلّمس آثارها فى الصحف السيارة وفيما تنشر لهم « دور النشر » من ابحاث ومؤلفات ، وهو اتجاه خطير ليس على الدين فحسب، بل على الامة العربية عموماً ذلك « لان الذين يتعلقون باللغات الاجنبية - كما يقرر الرافعى فى كتابه وحى القلم - ينزعون الى اهلها بطبيعة التعلق ، ان لم تكن عصبيتهم للغتهم قوية مستحكمة من قبل الدين او القومية ، فتراهم اذا وهنت فيهم هذه العصبية يخلطون من قوميتهم ويتبرأون من سلفهم، وينسلخون من تاريخهم ، وتقوم بأنفسهم الكراهة للغتهم وآداب لغتهم ، ولقومهم واشياء قومهم . فلا يستطيع وطنهم ان يوحى اليهم بأسرار روحه ، اذ لا يوافق منهم استجابة فى الطبيعة ، وينقادون بالحب لغيره ، فيتجاوزونه بالحب وهم فيه ، ويرثون دماءهم من اهلهم ، ثم تكون العواطف فى هذه الدماء للاجنى ، ومن ثم تصبح عندهم قيمة الاشياء بمصدرها لا بنفسها ، وبالخيال المتوهم فيها ، لا بالحقيقة التى تحملها .. وهذه الذلة اورثوها من ذل لغتهم وهوانها عندهم ، ولهذا السر « ترى المستعمر يفرض لغته فرضاً على الامة المستعمرة ويركبهم بها ، ويشعرهم

على تقدير الحاكم الفرنسى مسيو روجى لمنهج التعليم الذى وجدوا عليه المسلمين السنغاليين حتى فى قراهم وان ما كانت ادارة المدرسة الفرنسية تعتبره منهجا مبتكرا لتسهيل تعليم الاولاد انما هو مألوف ومطبق عمليا فى سنغال قبل وصول الفرنسيين . ولا غرو فى ذلك ابدا اذا تذكر القارئ ان القرآن الكريم قد دخل بلاد السودان الغربى (على حد تعبير المؤرخين العرب) منذ عهد سحيقة .

انها اذا لفة القرآن التى يتطلع اليها المسلمون فى مشارق الارض ومغاربها ، وهى اللغة الثرية ذات القابلية العجيبة للتطور، وهى الوعاء الامين للتراث الاسلامى والعربى ، وهى اللغة التى وصفها البروفسور هنرى باستيد استاذ الحضارة المغربية بمدرسة اللغات الشرقية بباريس بانها «الكثير لغات الوجود روحانية» (لوموند 6 - 8 - 66) حتى ان بعض القسيسين فى بيروت يخططون الآن بجد لاحتلالها محل اللغة اللاتينية فى مجال تثقيف الشبيبة وتربيتهم الروحية .. واخيرا هى اللغة القومية لست دول افريقية .. فرجائى ان تكون مكانتها فى بلدى وفى سائر الاقطار الاسلامية مكانة سامية. وان تولى العناية اللازمة فى سائر الاوساط. واننى بهذه المناسبة لاهيب بالحكومات العربية والاسلامية ، وبالهيات والمؤسسات الاسلامية ، وباهل اليسار من الافراد ، وباصحاب الفكر وخبراء التربية والتعليم ان يتعاونوا لحماية لغة القرآن ونشرها ، وتيسير تعليمها كما فعلت الامم «القوية» بلغاتها ، فان فى سخاء هذه وتضحياتها لعلنا لاولى الالباب . ولله در شاعر النيل حافظ ابراهيم اذ يقول على لسان اللغة العربية :

... وسعت كتاب الله لفظا وغاية
وما ضقت عن آي به وعظمت
فكيف اضيق اليوم عن وصف آلة
وتنسيق اسماء لمخترعات
انا البحر فى احشائه الدر كامن
فهل سألوا الفواص عن صدفاتي
فياويحكم ابلى وتبلى محاسنى
ومنكم وان عز الدواء اساتى
فلا تكلونى للزمان فانسى
اخاف عليكم ان تحين وفاتي
ارى لرجال الغرب عزا ومنعة
وكم عز اقوام بعز لغات
اتوا اهلهم بالمعجزات تفننا
فيايتكم تاتون بالكلمات
ايطربكم من جانب الغرب ناصب
ينادى بوادي فى ربيع حياتى
ولو تزجرون الطير يوما علمتم
بما تحته من عشرة وشتات
سقى الله فى بطن الجزيرة اعظما
يعز عليها ان تلين قناتى
حفظن ودادى فى البلى وحفظته
لهن بقلب دائم الحسرات
وفاخرت اهل الغرب والشرق مطرق
حياء بتلك الاعظم النخرات ...
ايهجرنى قومي عفا الله عنهم
الى لغة لم تتصل برواة ..

